

النظام اللغوي والتطور الاجتماعي

Linguistic system and social development

شهرة بلعالية

جامعة عبد الحميد بن باديس (الجزائر)

Chahra.bel3alia@gmail.com

تاريخ القبول: 2024/04/23

تاريخ الاستلام: 2023/09/04

ملخص:

تعتبر اللغة هي الوسيلة الأساسية للتواصل بين المجتمعات وأفرادها في ما بينهم، و ذلك مهما اختلفت ثقافتهم و انتماءاتهم التي يمكن ان تحدد لغاتهم، و هذه الأخيرة التي قد تخضع لضوابط تؤطرها و تميزها عن بعضها البعض، في حين انه يمكن الاشارة الى التطور و التأثير الذي قد تشهده كل لغة من خلال التطور الاجتماعي الذي بدوره يتأثر بظروف و فترات زمنية معينة، و من خلال هذه الورقة البحثية سنتطرق و نوضح المقصود من النظام اللغوي و مدى علاقته بالتطور الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية:

النظام اللغوي، التطور الاجتماعي.

Abstract :

Language is the primary means of communication between communities and their members, and no matter how different their cultures and affiliations, which can determine their languages, and this latter, which may be subject to controls that frame and distinguish them from each other, it can also refer to the development and influence that each.

Keywords: linguistic system, social evolution.

. مقدمة:

اللغة ظاهرة اجتماعية تترابط وتنسجم وظيفة مع الأنظمة الاجتماعية الأخرى فهي دائمة التغير مع التحولات الطارئة التي تعترى البناء الاجتماعي، وتقوى وتنهار تبعاً لمقتضيات الحال وظروف المجتمع وهي ليست رموزاً ومواصفات فنية فحسب ولكنها منهج وفكر وأسلوب وتصور لواقع الأمة ورؤية شاملة لقضاياها ومشاكلها والحياة اللغوية تخضع لمؤثرات شتى قديمة وحديثة طارئة ومناخية مزاجية بيولوجية متشابكة في نسيج معقد، ولنا أن نتساءل هل اللغة والمجتمع وجهان لعملة واحدة؟، وكيف يساهم النظام اللغوي في البناء والتطور الاجتماعي؟.

الإنسان واللغة صنوان لا يفترقان، وهما معا يشكلان البيئات والمجتمعات وبقدر ما ينسجمان يؤكدان على الحركة والمرونة. ويبرهنان على مستوى التواصل الاجتماعي، وعلى التفكير والأداء اللذين هما سمة تميز خاصة بين شخص وآخر، فالإنسان الكامل هو ذو اللغة التامة يتفقت بها لسانه فتحدّر عنه كالسلسل تروى ظمأ صحراء الحياة وتحيي الأموات تسر الأسماع بقدر ما تبهج الأفئدة¹

مراعاة المستوى الاجتماعي لاستعمال اللغة:

يقول ساير أننا باعتبارنا كائنات بشرية لا يمكن أن نوجد خارج المجتمع حتى أنّه لو وضع شخص ما في زنزانة منفرداً فإنّه مع ذلك لا يزال موجوداً في المجتمع لأنّه يحمل أفكاره معه، وهذه الأفكار مهما كانت خاصة به فإنّها تكونت بمساعدة الجماعة فنحن لا نحصل على خبرة ما لها طابعها الاجتماعي بصفتنا الفردية مهما بلغت درجة اهتمامنا بها اللغة ظاهرة اجتماعية تترابط وتنسجم وظيفة مع الأنظمة الاجتماعية الأخرى فهي دائمة التغير مع التحولات الطارئة التي تعترى البناء الاجتماعي، وتقوى وتنهار تبعاً لمقتضيات الحال وظروف المجتمع وهي ليست رموزاً ومواصفات فنية فحسب ولكنها منهج وفكر وأسلوب وتصور لواقع الأمة ورؤية شاملة لقضاياها ومشاكلها والحياة اللغوية تخضع لمؤثرات شتى قديمة وحديثة طارئة ومناخية مزاجية بيولوجية متشابكة في نسيج معقد، ولنا أن نتساءل هل اللغة والمجتمع وجهان لعملة واحدة؟، وكيف يساهم النظام اللغوي في البناء والتطور الاجتماعي؟..

ترمي بنظرك إلى البقاع والأصقاع فتسكن إلى فرحة الإناس ويشرح صدرك الإبداع وتلمس بالحواس حقيقية إن المرء مخبوء تحت طي لسانه، وهذه آية المعرفة ومنتهى الثقافة وعين العلوم لذلك نضج اليوم ونشكو وكل يكيل للآخر بمكيال القذف الأرعن، فاللغة تارة عاجزة بعدما شاخت وكللها الشيب فهي تدب ديبب المحتضرين نلوك بها ألسنتنا لوك الخائف عن هضم عسير، والإنسان تارة الأخرى هو العاجز الذي أل به الطمّوح الضياع،

وبين هذه وتلك نقرأ في سفر الإبداع إنّ العربي المعاصر يعيش اليوم بلا لغة وهو عيال على لغة الأجداد الذين تسارعت بهم الأيام وتقلبت بهم الأطوار، ورغم كل ذلك تراهم قد عقلوا واقعهم، وتفهموا مراحلهم كلها، فتركوا بصماتهم بلغة تطبع ألسنتنا، وتشمخ بها رؤوسنا عزا، فلم تكن بدواتهم إذن إلا موئل استيعاب لمدينتهم على عكس مدينتنا التي نقرّ ونعترف بأنها بوق أجوف ينفخ في أذننا وقع الجهل والتخلف فينا علما بأن حياة العربي قد جاءت في لغته أكثر مما جاءت في أشياء بيئة وكان لهما ما كان لها من سيطرة عليه وجدت له².

إنّ اللغة العربيّة ذات نسق خاص ولها وحدات صوتية وتركيبات خاصة فقد اتسع صدرها لكثير من الألفاظ الفارسية الهندية اليونانية وغيرها في القرون الوسطى، فكانت المؤلفات العربية في الفلسفة والطب والرياضيات مراجع يعتد بها لدى الأوروبيين وكانت العربيّة أداة الفكير ونشر الثقافة في الأندلس التي أشرقت منها الحضارة العربية على أوروبا³.

وهي سجل الماضين وانعكاس الجهود والآمال ولا عجب بعد إذا ارتقت منازل التّقدّيس والتّبجيل لأنّه استطاعت أن تظلل المواضع كلها، وتستقرئ الهمسات والسّكنات، وتظهر الواقع وتنبئ عن الغيب تدل على الفصيح وتفصل العلوم وتستخدم الأعجمي وتل من غي مخاض الكلم شعرت بنقص يضرب أسرتها كما أنّها تحيل الصّعب والكثير إلى سهل قليل بالنّحت والتّهذيب وبهذا كانت ملكة في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها⁴.

وبمثل هذا يتبين لنا بوضوح إلى أنّ القصور ليس في اللغة وإنما هو نقص أصاب العربي بعدما قعدت به همته عن التّواصل والاكْتساب وبفهم أكثر دقة ووعياً نقول إنّ العربيّة الفصحى ليست هي المتخلفة، فلقد أدت دورها في حضارة الإنسان وما تزال تؤدّيه وإنما التّخلف فينا في عقليّاتنا ونفسيّاتنا وفي مناهجنا وطرائقنا وفي تلهينا بالقشور عن اللّباب وهي ولا ضير عليها إن كانت عند نفر لغة شائخة مندوفة الطاقة والمائيّة لا تنبض بفكر ولا تجري في مضمار الحضارة إلى غايته حتى تلهث، ويبطل فيها نبض الحرف عند آخر لغة جاءت والصّعوبة على موعد، فالقاعدة فيها عصية لا تلين، ومهما يكن من أمر ستظل نافذتنا الوحيدة التي تطل منها على العالم كله شرقاً وغرباً ولسوف تظل رمز وحدتنا مآكر الجديدان وتعاقب الملوان⁵.

أساس اللغة لا يقوم على ما تحويه من كلمات وإنما يقوم على تركيبها الخاص، وبإمكاننا أن نقول إنّ العرب في ظلّ الاستعمار لجئوا لحماية هويتهم وأصالتهم باللغة العربيّة بالأحرى إلى اللغة العربيّة القديمة، ومن هنا نلمس القوة والصّلابيّة في قيم اللغة العربيّة ومزاياها، هذه اللغة التي ناضلت بنجاح لاضد غزو اللّغات الغربية المتسلحة بقدرة

عملية على الاتصال فحسب، وإنما كذلك ضد اللهجات (المحلية العامية) التي حاول الاستعمار تغذيتها لزرع الفرقة والتجزئة، وليس منطقيا ولا معقولا أن تكون لغة كاللغة العربية قد امتازت بالسعة في مذاهب البيان وبلغت حد المعجزة في تعريف الأشياء والموضوعات أن تقف اليوم عن تناول هبات الحضارة ومصطلحات العلوم، ولكن هذا يفرض ألا يغيب عن بالنا إن من طبيعة اللغات أن تكون دائمة التغير فلا يمكن أن تداقي على حالة واحدة زمنًا طويلاً، وإما أن تتسع وتنمو وإما أن تنحصر وتنكمش قليلا قليلا حتى تضعف أو تعود إلى النهضة جديدة⁶ والغريبة من اللغات التي اتسعت ونمت ومازالت قادرة على التطور ومحاكاة الأمور وقد أقامت لنا من تاريخها شاهداً حياً على طواعيتها ومصداقيتها وبخاصة بعد الانقلاب العظيم الذي أصابها عقب ظهور الإسلام، فقد انقلبت إلى لغة عالمية تتكلم بها شعوب كثيرة جداً، فقد نزح عرب الحضر البادية من أطراف الجزيرة تحت قيادة أبطال مسلمين إلى جميع نواحي المعمورة، وفتحوا الممالك والأمصار باسم الدين الحنيف في زمن وجيز، وكانت لغتهم تسيرهم خطوة خطوة في جميع البلد التي انتشروا فيها وبسطوا سلطاتهم عليها، ونتيجة لهذا الانتشار أدركوا أنهم لا يحملون عقدة وسلاح وهم في خضم حضارات وإنجازات علمية عالمية فأيقنوا أنهم بأمر الحاجة إلى هذه المعطيات التي تساعد على السلطان وتطوير العمران والصناعات وقضاء الحاجات الاجتماعية المستجدة، فشرعوا يأخذون العلوم من أهلها ويضيفونها إلى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاء في بعض المواضع ذللوها وأخضعوا الغريب عنها لأحكامها، فأيسرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير على إدراك ما طلبوا من نور العرفان، ونحن حري بنا ألا ننسى أن زمانهم غير زماننا، فكانوا أصحاب حول وطول وذوي مجد وسلطان، ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء على أنهم في عزهم وفخرهم وتمكنهم من أنفسهم واعتزازهم بلغتهم لم ينفروا من العجمة بل استخدموها حيث وجدوا الأخذ بها تمكيناً للغتهم من أن يصيبها الوهن إذا قعدوا عن مجارة تيار التقدم وهم أولو الرأي فيه، وخفا من أن يعوقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الأمم التي كانت تعاصرهم⁷، فلقد اكتسبوا اللغة من بيئتهم وطوروها بنتاج عصرهم الذي كانوا يعيشون فيه، وبناء على ذلك تراهم يراعون اللغة كما تنطق في عصرهم لا كما كانت تنطق في عصور سبقت، ولا كما ينبغي أن تنطق وفق نموذج مثالي لعصر ذهبي ما فلقد كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائلكهم وفرائضهم، فلما جاء الله جلا ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة إلى ألفاظ من مواضع إلى مواضع آخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعني الآخر الأول⁸.

فكان مما عفاه الإسلام وقد جاء فيه ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وإن العرب عرفت المؤمن من الأمان والإيمان هو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بما سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً، وكذلك الإسلام والمسلم

وإنما عرفت منه إسلام الشّيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والستر، وكذلك كانت حال المنافق الذي هو اسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع، ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم فسقطت الرّطبة إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله عزّ وجلّ ومما جاء في الشرع الصّلاة وأصله في لغتهم الدّعاء، وقد كانوا عرفوا الركوع والسّجود وإن لم يكن على هذه الهيئة⁹.

وبهذا تجد أنّ التطور عندما يطرأ لا يكون جزئياً في شيء دون آخر فهو يعمّ الإنسان أولاً، ومن ثم يحكم تصرفاته كلها بما في ذلك الأخلاق والموضعات كذلك تراه يزحف الى اللّغة زحفاً لأن التطور في اللّغة يعود إلى طبيعتها الاجتماعية المختلفة إذ هو سمة من سمات الظاهرات الاجتماعية المختلفة التي هي في اندفاع مستمر لا بد لأحد على إيقافه ووضع القيود والمعابر في طريقه كما أنه لا قدرة لأحد على مخالفته أو الخروج على مقتضى التوافق معه¹⁰.

فاللغة تتأثر بما تأثر بحضارة الأمة ونظمها وتقاليدها وعقائدها واتجاهاتها العقلية ودرجة ثقافتها ونظرتها إلى الحياة وأحوال بيئتها الجغرافية وشؤونها الاجتماعية العامّة وكل تطور يحدث في ناحية من هذه الشعوب وإلى مثل هذا أشار ابن رشيق القيرواني حين قال قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ويستحسن في بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، فنجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد إلا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة¹¹.

والقيرواني عندما يذكر الشعراء إنّما يعني النّخبة الواعيّة التي تجمع بين اللّغة والأدب في آن واحد أضف إلى أن الشاعر عندما يلتفت بشعره إلى جديد مستحدث يكون هذا الجديد قد بلغ غايته من التعميم في المجتمع فبالوقوف إذن على المراحل التي اجتزتها لغة ما وعلى ضوء خصائصها في أي مرحلة منها يمكن استخلاص الأدوار التي مرّ بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم فكلما اتسعت حضارة الأمة وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ورفي تفكيرها وتهدبت اتجاهاتها النفسية ونهدت لغتها وسمت أساليبها وتعددت فيها فنون القول ودقت معاني مفرداتها القديمة ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتراس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة تكون قد تكاملت لديها وسائل النمو والمدنية والتطور وهذا التطور لا يوصف بأنّه اتجاه إلى الأحسن أو الأقبح أو أنّه تطور إلى الارتفاع أو الانخفاض أو الصّحة أو الفساد، فليست اللّغة العربيّة الفصحى مثلاً في القرن الأوّل الهجري أصح منها في القرن الثّاني أو الخامس وبالمثل لا ينسب إلى لهجات العصر الجاهلي من التّفضيل

والتميز ما تحرم منه اللهجات التي تنطق الآن بين قبائل الجزيرة العربية التي تقطن الأماكن التي وجدت فيها اللهجات العربية القديمة فاللغة أو اللهجة لا يقاس صلاحها بحسب التقدم أو التأخر في الزمن والزقي أو التأخر في الحضارة بل تحسب قدرتها على أداء دورها الاجتماعي بين من ينطقوها، إذ تستجيب للتعبير عن تجاربهم ومظاهر حياتهم وتحقيق الاتصال والتفاهم بينهم¹².

فاللغة انعكاس طبيعي لما عليه لأنها أداة الحاضر وصورة التاريخ وأنها تقتبس الألوان الحضارية والاجتماعية الدالة على مجاري الأمور ومصائر الأزمان، والعربية ليست بدعا من اللغات وإنما هي اصدقهن شاهداً على هذا الانعكاس والتأثر فقد كان لانتقال العرب من هجبة الجاهلية إلى حضارة الإسلام ومن النطاق العربي الضيق الذي امتازت به مدينتهم في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر في العباس أثر في نهضة لغتهم ورفي أساليبها واتساعها لمختلف فنون الآداب وشق مسائل العلوم، وانتقال الأمة من البداوة إلى حضارة يهذب لغتها ويسمو بأساليبها، ويوسع نطاقها ويزيل مع عسى أن يكون بها من خشونة ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة¹³.

وثمة ميزة أخرى استطاعت العربية أن تمتاز بها وهي التعبير بالدلالة على التطور الفكري الذي يطرأ على إنسان ما إذا ما انتقل من بيئته وحدوده الجغرافية إلى بيئة أخرى وحدود جغرافية تشهد حضارة وتطوراً اجتماعياً أكثر، وإلى مثل هذه الظاهرة يشير ما يه بقوله في كل وسط اجتماعي متجانس السكان نجد عادة أن لوجود اللغة شيئاً من الوحدة بل إنه لشرط أساسي لوجود اللغة أن يحرص من يتكلم بها على استخدام الوسائل نفسها للتعبير وهذا ما يدركه أفراد كل جماعة محددة فالخروج من جادة اللغة يثير من يسمعها ويعرض الخارج إلى السخرية على الأقل¹⁴.

فاللغة إذن كما يقول أولمان ليست هامة أو ساكنة بحال من الأحوال، وبالرغم من إن تقدمها قد يبدو بطيئاً في بعض الأحيان فإن الأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغيير والتطور ولكن سرعة الحركة والتغيير هي التي تختلف من فترة إلى أخرى ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة ما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق وانسجام يحدث مثله بين لغتها ومظاهر بيئتها الجغرافية فجميع خصائص الإقليم الطبيعية تنطبع في لغة سكانه ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية ومن ثم كذلك نشأت فروق غير يسيرة بين أفراد الفصلية اللغوية الواحدة بل بين لهجات اللغة الواحدة¹⁵.

إنّ اللّغة وليدة اجتماع النّاس بعضهم مع بعض وفي قيامهم بعمل مشترك وكلما قاموا بعمل ما متضامنين متعاونين تصدر عنهم أصوات تدل على ذلك العمل ولكن هذه الأصوات تتمايز تبعاً لطبيعة العمل وكلما تكرر فعلهم تكرر الصوت ذاته فكانت هذه الأصوات التّوة الأولى لنشوء اللّغة¹⁶ والعربية من اللّغات الّتي اتسعت و نمت ومازالت قادرة على التّطور ومحاكاة الأمور وقد أقامت لنا من تاريخها شاهداً حياً على طواعيتها ومصادقتها وخاصة بعد الانقلاب العظيم الّذي أصابها عقب ظهور الإسلام فقد انقلبت إلى لغة عالمية تكلم بها شعوب كثيرة جداً والتطور في اللغة هو أمر ضروري بل قل هو من أسس التّكامل الاجتماعي والنّمو الحتمي في كل المجتمعات السّائرة على طريق الانتقال التّرقّي من البداوة إلى الحضارة وبالتّطور وحده وبالإصرار على ضرورته تبقى اللغة للمستقبل وتبقى المجتمعات بأبنائها للحياة والإنسانية لأنّه انعكاس حقيقي للحياة الفكرية في أي عصر من العصور¹⁷.

فاللّغة لأمة هي الرّابط التّاريخي الّذي يشدّ أبنائها إليها ويعزز في نفوسهم شرف الانتماء فإذا أردنا أن نفهم الفكر والإنتاج الفكري فالواجب أن ندرس اللّغة وإذا أردنا أن ندرس اللّغة فعلياً أن ندرس عملها في المجتمع وإذا درسنا عملها في المجتمع أدركنا أن الإنسان استطاع باللّغة فهم الطبيعة والمجتمع وكشف قوانينها والسيطرة عليها¹⁸. وهذا ينطبق على اللّغة العربيّة الّتي ذاعت وانتشرت بين العرب وغير العرب دليل على قوتها وأصولها وتناغمها واتساقها وتليبيتها لمطالب كل من الفرد والمجتمع فالجسر الأساسيّ للحفاظ على هويتها العربيّة هو التمسك بلغتها في عصر العولمة والتّقدم السريع في جميع المجالات¹⁹، إن لغتنا العربيّة قد أصبحت وعاءاً للمعرفة وللعلوم فهي صاحبة تاريخ طويل ذات ثورة فكرية وأدبية واسعة ومن ذلك يقول عالم رياضيات الشهير البيروني وكانت العلوم تنتقل بها عن طريق الترجمة إلى مختلف لغات العالم وبقيت منقوشة على القلوب بعد إن جملتها اللغة العربيّة²⁰.

ومهما يكن من أمر فإنّ اللغة أثراً فعالاً في حياة الفرد والمجتمع فهي بالنسبة للفرد وسيلة لاتصاله بغيره وعن طريق اتصاله يدرك الفرد أغراضه ويحصل على رغباته كما أنّها وسيلته الّتي يعبر بها عن آماله وآلامه وعواطفه واللّغة تهيب للفرد فرصاً كثيرة للانتفاع بأوقات فراغه، وذلك عن طريق القراءة والمطالعة والاستماع بالمقروء فيفدي الفرد بذلك عواطفه وهي أداته الّتي يقنع بها غيره في مجالات المناظرة والمناقشة وتبادل الرّأي كما أنّها أداته الّتي ينصح بها الآخرين ويرشدهم وينشر بواسطتها المبادئ يسهم ويؤثر فيهم واللّغة إلى جانب ذلك كله أداة التّفكير وصلة الوصل بين الإنسان والفكر والعلم والأدب إذ تتكون الأفكار في ذهن الإنسان فيعبر عنها باللّغة.

فاللغة في المجتمع وسيلة اجتماعية وأداة تفاهم وتعاون يستعملها المجتمع في أغراض شتى في الخطب الإذاعية والدعاية والشعر والمقالات وفي الصلاة والدعاء وأمور الدين وغير ذلك واللغة فوق ذلك كله من عوامل الوحدة السياسية للجماعات فالجماعة مهما اختلفت في الدين أو الجنس أو البيئة فإن كانت لغتها واحدة تظل متماسكة متحدة ولهذا السبب حرصت الدول الاستعمارية دائما على نشر لغتها بين الأمم لتظل تلك الأمم منجذبة إليها عاطفيا وسياسيا وكذلك تحفظ تراث المجتمع الثقافي والحضاري وتنقله عبر الأزمان من جيل إلى جيل وهي رمز للمجتمع تدل عليه وتعكس صورته الثقافية والأخلاقية وصفاته المختلفة، فالمجتمع أو الجيل الذي تكثر في لغته ألفاظ الكرم والسخاء مجتمع كريم وعكس ذلك المجتمع أو الجيل الذي تكثر ألفاظ البخل والشح وتقل ألفاظ الكرم والعطاء فالألفاظ اللغوية بدالاتها تدل على مستوى المجتمع أو الجيل في الحضارة والثقافة والأخلاق وغيرها، اللغة عنوان رقي الأمة والحركية للغة دون حركية المجتمع الذي هو عصب اللغة وعماد مفاهيمها وتقاس أهمية اللغة بقدرتها على التبليغ ومواكبة المستجد من المفاهيم الاجتماعية والحضارية²¹.

فالفرد حين يستعمل لغة الجماعة التي هو عضو فيها أو لهجة البيئة التي نشأ بينها لا يتوقف استعماله على قواعد مقننة أو هيئة ذات اختصاص ولو كان الأمر كذلك لما تمكن عوام الناس الذين لا يحدقون معايير النحو ولا يسمعون عن جهات الاختصاص وربما لا يعرف الكثيرون منهم القراءة والكتابة أصلا من الحديث بالمرّة مع أنّ الأمر في الواقع خلاف ذلك تماما إذ نجدهم يستخدمون لغتهم بطريقة تلقائية سهلة وهذا يعود إلى أن لغتهم لا تشتمل على قواعد ونظام كما هو شائع عنهم خطأ فالحق أنّ للهجات العوام قواعد أشد صرامة من قواعد اللغات المكتوبة كما تدل على ذلك المشاهدة والملاحظة فلو انتقل أحد أبناء القرى إلى قرية أخرى تتكلم لهجة مغايرة لهجته فإنّه على الفور تتضح الفروق الدقيقة في الأصوات والكلمات وتأليف الكلام بين لهجته وهذه اللهجة الغربية عنه فمعنى ذلك بوضوح أن المستوى الصوباني الذي يراعيه هؤلاء مرجعه إلى الاستعمال لا إلى القواعد ولا إلى جهات الاختصاص²². يقول فيرث أنّ كلام الجماعة المتزامنة لغويا يعتبر شيئا مختلفا عن الكلام أولئك الذين لا ينتسبون لنفس جماعة وإن هذا الكلام كما يعد رابطة بينهم هو في الوقت نفسه حد يميز يخرج غيرهم منهم الأفراد يكسبون اللغة من بيئتهم وفي عصرهم الذي عاشوا فيه وبناء على ذلك يراعون اللغة كما تنطق في عصرهم لا كما كانت تنطق في عصور سبقت ولا كما ينبغي أن تنطق وفق نموذج مثالي لعصر ذهبي غيبيته الأيام، وقد أشار لهذا المعنى ابن رشيق بقوله قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ويستحسن في بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أصله بعد إلا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة، اللغة آية لغة في حركة

دائمة ويؤدي ذلك الى التّغير في مختلف مظاهرها أصواتا وصيغا ومفردات وتراكيب²³، والتّطور في اللّغة يعود إلى طبيعتها الاجتماعية إذ هو سمة من سمات الظاهرات الاجتماعية المختلفة فهي في اندفاع مستمر لا بد لأحد على إيقافه ووضع القيود والمعايير في طريقه كما أنّه لا قدرة لأحد على مخالفته أو الخروج عن مقتضى التّوافق معه هذا التّطور المستمر في اللّغة لا يوصف بأنّه اتجاه إلى الأحسن أو الأقبح أو أنّه تطور إلى الارتفاع أو الانخفاض أو الصحة أو الفساد، فليست اللغة العربية الفصحى مثلا في القرآن الأول الهجري أصح منها في القرن الثاني أو الخامس وبالمثل ينسب إلى لهجات العصر الجاهلي من التّفضيل والتّمييز ما تحرم منه اللهجات التي تنطق الآن بين قبائل الجزيرة العربية التي تقطن الأماكن التي وجدت فيها اللهجات العربية القديمة ولا اللهجات التي تنتشر الآن في العالم العربي على تنوعها واختلافها كما أن العكس أيضا غير صحيح بأن تنسب إلى اللغة المشتركة أو اللهجة التي وجدت في فترة أكثر حضارة صفات الرّقى و التّفضيل لأنها تعبر عن تجارب أرقى لم تتوفر بما سبقها في الزمن²⁴.

فاللّغة أو اللهجة لا تقاس صلاحيتها بحسب التقدم أو التأخر في الزمن والرّقي أو التأخر في الحضارة بل بحسب قدرتها على أداء دورها الاجتماعي بين من ينطقونها إذ تستجيب للتعبير عن تجاربهم ومظاهر حياتهم وتحقيق الاتصال والتفاهم بينهم إن اعتبارا لتطور في اللغة بغيرها من جيل الى جيل آخر على فترات تتخللها تغيرات وانحرافات دائمة يستتبعه بالضرورة تغير ما يراعيه المتكلم على حسب العرف اللّغوي الجديد الذي يفرض نفسه عليه كي يتوافق معه ويترتب على ذلك أن مستعمل اللغة لا يطالب بغير مراعاة المستوى الصوّابي²⁵ في اللّغو الذي اكتسبه من جيل، ومن عرف العصر الذي عاش فيه²⁶ قال ابن جني في حدّ اللّغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم²⁷ وهذا تعريف دقيق يذكر كثيرا من الجوانب المميزة للّغة، أكد ابن جني أولا الطّبيعة الصّوتية للّغة كما ذكر وظيفتها الاجتماعيّة في التّعبير ونقل الأفكار وذكر أيضًا أن تستخدم في المجتمع، فلكل قوم لغتهم، ويقول الباحثون المحدثون بتعريفات مختلفة للّغة وتؤكد كلّ هذه التعريفات الحديثة الطّبيعة الصّوتية للّغة أو الوظيفة الاجتماعيّة للّغة وتنوع البنية اللّغوية من مجتمع لآخر يقول ماكس مولر على أنّ وظيفة الكلمات لا تقوم بنقل الأفكار نقلا مجردا، وإثما وظيفتها التّأثير في أفكار الآخرين، وبهذا تصبح اللّغة أداة لنقل الأفكار²⁸.

اللّغة وسيلة أساسيّة من وسائل الاتصال الاجتماعي وخاصّة في التّعبير عن الذات، وفهم الآخرين ووسيلة مهمّة من وسائل النّمو العقلي والمعرفي والانفعالي، وعلى أنّها نظام من الرّموز المتفق عليها والتي تمثل المعاني المختلفة والتي تسير وفق قواعد، واللّغة نفسها تتأثر بكلّ هذه الظواهر الاجتماعيّة تأثرا كبيرا فهي بدوية في المجتمع البدوي غير المتحضر ولذلك نجد فيها محدودة الألفاظ والتّراكيب، تؤدي اللّغة دورا مزدوجا للمجتمع والفرد فهي

بالنسبة للمجتمع وسيلة لصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية ووصله بأفراده، وربطه بترائه وهي للفرد وسيلته في الاتصال بالآخرين للحصول على حاجاته والتنفيس عن مشاعره ثم هي وسيلة التعلم والتأثير في أفكار الآخرين فهي تحيا بحياتهم وتموت بموتهم وتتقدم وتتطور بتقدمهم وتطورهم.

خاتمة:

ومجمل القول يمكن القول أنّ اللغة تلعب دورًا هامًا وملموًا في الحياة اليومية وذلك من منطلق كونها الوسيلة الرئيسية للتعارف والتواصل ولأن الإنسان باعتباره كائن اجتماعي لا يستطيع أن يحيا بمعزل عن مجتمعه إذ لا بد من أن يتصل بالآخرين سعيًا نحو إشباع حاجاته ومواجهة متطلبات حياته اليومية وكلما ازداد الفرد توغلا في عضويته للمجتمع أدت اللغة دورًا متميزًا ليس في حياته الاجتماعية فحسب بل في سلوكه وإحساسه وتفكيره الشخصي، وعليه فإنّ حياة اللغة وارتقاءها مبنيان على مقدار نصيب أهلها من الرقي والتّمدن، فكّما ارتقت الأمة كثرت حاجتها بالطبع، فالتسعت لغتها باتساع الحاجات، فاللغة إذن هي إحدى الوقائع الاجتماعية الفاعلة والمؤثرة في سياق الوجود الاجتماعي وديمومته كلها فهي تبقى ببقائه وتزول بزواله وليس ثمة إمكان لوجود أية لغة خارج نطاق المجتمع.

الهوامش:

- ¹ محمد فريد عبد الله، في فقه اللغة العربية، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، د.ب.ن، 2009، ص 19.
- ² محمد فريد عبد الله، في فقه اللغة العربية، د.د.ن، د.ب.ن، د.س.ن، ص 15.
- ³ رشدي أحمد طعمة، المرجع في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، ج 1، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط 1، 1986، ص 13.
- ⁴ عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تحقيق على عبد الواحد وافي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط 1، 1962، ص 554.
- ⁵ صحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1960، ص 361.
- ⁶ إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ط 1، مطبعة الاعتماد، د.ب.ن، 1929، ص 218.
- ⁷ أحمد ابن فارس الصحابي، في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشوملي، مؤسسة بدران، بيروت، د.س.ن، ص 78، ص 80.
- ⁸ محمد فريد عبد الله، المرجع السابق، ص 21.
- ⁹ ابن القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ط 1، د.د.ن، د.ب.ن، 1952، ص 59.
- ¹⁰ محمد عيد، المرجع السابق، ص 29.
- ¹¹ على عبد الواحد وافي، علم اللغة، ط 3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1944، ص 179، ص 180.

- ¹² لانسونو مايه، منهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة محمد مندور، د.د.ن، بيروت، 1946، ص81.
- ¹³ ستيفن أولمان، الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، ط12، دار غريب للطباعة والنشر، د.ب.ن، 1997، ص156.
- ¹⁴ محمد فريد عبد الله، المرجع السابق، ص30.
- ¹⁵ إسرائيل ولفنسون، المرجع السابق، ص215.
- ¹⁶ زكريا إسماعيل، طرف تدريس اللغة العربية، د.د.ن، د.ب.ن، د.س.ن، ص03.
- ¹⁷ محمود كامل الناقلة، تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى مكة المكرمة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1985، ص18.
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص18.
- ¹⁹ محمد عيد، المرجع السابق، ص26.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص29.
- ²¹ عبد الرحمان السفاسفة، طرائق تدريس اللغة العربية، ط3، مركز يزيد للنشر والتوزيع، د.ب.ن، 2004، ص30.
- ²² محمد عيد، المرجع السابق، ص23.
- ²³ المرجع نفسه، ص26.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص29.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص30.
- ²⁶ أبو فتح عثمان ابن جني، الخصائص، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، ج1، مجلد 1، ط1، دار الكتب العلمية، 2001، ص15.
- ²⁷ علي نعمي، الشامل في تدريس اللغة العربية، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004، ص11.
- ²⁸ زكريا إسماعيل، المرجع السابق، ص38.